

من أجل بحث آثار في المخاطر pour une archéologie du risque

١- التصر في المخاطر

L. Penser le risque

يمكن أن نقرأ في مقالة كتبها روري ف. كنيث Rory F. Knighth وديسورا ج. بريتي Deborah J. Pretty بعنوان: "تحديد فلسفة للمخطر"، نشرت في الصحيفة الفرنسية اليومية ليزيكو Les Echos، في (٥ سبتمبر "أيلول" ٢٠٠٥م)، الملاحظة التقديمية التالية التي تحتفظ بكل اتساقها في الوقت الراهن:

اكتسبت المخاطر سمعة سيئة في الآونة الأخيرة. فالناسي الإنسانية التي هي حادث مدينة بهوبال^(١) Bhopal وحادث "بيير ألفا"^(٢) Piper Alpha، وانتهيار صندوق المضاربة^(٣) LTCM، والحوادث المؤسسة التي وقعت في بنك

(١) كارثة حصلت في الثالث من ديسمبر كانون الأول ١٩٨٤م، عندما انفجر مصنع كيميائي تابع لشركة أونيون كاريد، وقتل أربعة آلاف شخص، وستة آلاف شخص بعد ذلك؛ ثلاثمائة منهم في اليوم الأول. (الترجم)

(٢) الاسم السابق لمنصة بتروك تقع في بحر الشمال قرب يثير بير (على شواطئ اسكتلندا). دمرها انفجار نشب بعده حريق تسبب بمقتل ١٦٧ شخصاً، وخسارة مالية قاربت ٣.٥ مليار دولار في ذلك العصر. (الترجم)

(٣) انهيار المجموعة الأمريكية: لونغ نرم كايثال مائجماث (إدارة رأس المال على المدى البعيد)، في عام ١٩٩٨م. (الترجم)

بارينفس^(٤) Barings، والمخاطر الخفية التي تسبب بها الأمانت^(٥) amiante، والدخان، والتدهور البيئي، وسحب شركتي بيريه Perrier للمياه وكوكاكولا منتجاتهما، هي بعض التمثيلات السلبية التي أثارت اشمزاز المسؤولين من المخاطر. والخبر السيئ، هو أن... المخاطر لا يمكن بطبيعتها أن يكون عرضة للإزالة تماماً. والخبر الجيد، هو أن مديري الشركة ليسوا مكلفين بإزالة المخاطر. بل هم على العكس يتقاضون أجورهم لكي يركبوا المخاطر.

ثم خصص المؤلفان بعد هذه الفقرة مقالهما للبرهنة على أن الميزات في مجال ابتداع القيمة في إدارة المخاطر الذي يسمونه بالتالي قسمة دالة إلى مخاطر إستراتيجية، ومخاطر السوق، ومخاطر الكوارث، ومخاطر الاستغلال، في مواجهة ما يسميانه "طرق الإدارة التقليدية القائمة على الاشمزاز من المخاطر". ولعلنا لاحظنا في هذه المقاربة ما تجري إدراته في بعض الأحيان تحت اسم "الطوباوية الاجتماعية الجديدة" التي تستند إلى تقديم المخاطر بوصفها "قيمة القيم"، ويصدر عن القناعة التي تقول إن "مجتمع المخاطر" قائم على "إنكار المسؤولية في مواجهة المخاطر"، ينكرها أشخاص يتمتعون بالحماية في وجه خطر الآخرين: حيث لا ستكون المخاطر في هذا السياق الداعم الإيديولوجي للتفكك الاجتماعي.

إذن، إن مصطلح المخاطر يسبب قدراً كبيراً من سوء الفهم، حتى لو كان من المقبول عموماً أننا أصبحنا في مجتمع المخاطر^(٦)، لكي نعيد استخدام عبارة وردت في كتاب عالم الاجتماع أولريش بيك^(٧) Ulrich Beck، الذي ظهر إبان كارثة تشيرنوبيل.

(٤) من أقدام البنوك البريطانية اختفى عام ١٩٩٥م بعد وجود استمر ٢٥٠ سنة بسبب التنظيف المكشوف المقرط لموجودات البنك. المترجم

(٥) مادة طبيعية تستخدم أليافها في صناعة عوازل لا تحترق، وهو مادة سامة تسبب أمراضاً سرطانية. المترجم
(٦) عالم اجتماع ألماني، ولد عام ١٩٤٤م، أستاذ في جامعة ميونيخ، وفي مدرسة الاقتصاديات في لندن، والمقصود كتابه الصادر عام ١٩٩٢م بعنوان: مجتمع الخطر: نحو الحدأة الجديدة.

Ulrich Beck, Ulrich (1992) Risk Society: Towards a New Modernity. London: Sage.

لكي نتبصر المخاطر، كما هو الحال في التبصر بالتاريخ، لا يكفي أن نعرف كيف هي الأشياء في الوقت الراهن، ولكن كيف أصبحت تلك الأشياء على ما هي عليه. لذلك فإن الحكايات المؤسسة، الأساطير التي مكنت البشرية من التبصر في ذاتها، والتي رسمت سبلاً للتبصر، تشكل تلك "الفرجة بين الماضي والمستقبل"، التي تسمح بكل ممارسة للتبصر مرتبطة "بأحداث الحياة المعيشة، كما ترتبط بالأدلاء الوحيدين المخصصين لتوجيهها"، كما تقول الفيلسوفة حنة أرنت^(٧)، ومنسجماً إليهم هنا أيضاً لكي نتبصر. (١١٨)

٢- عند جذور التاريخ البشري

2. Al'origine de l'histoire humaine

إن لمصطلح المخاطر أصلين اشتقائيين، فهو مشتق من جهة من الكلمة اللاتينية *resicare*، التي تعني "قطع"، "فصل بوضوح"؛ وينفعل هذا الأصل نجد أن كلمة *riesgo* الإسبانية تشير إلى "الصخرة المقطعة"، وتعني من جهة أخرى "الرصيف الصخري"، وهو مشتق من الكلمة الإغريقية *rhiza* التي تعني "الجذر"، ولكنها تعني أيضاً "الأساس" و"الأصل"، والمصطلح له في الإغريقية معنى "المخاطر". إن هذا الاشتقاق المزدوج يحيل بوضوح إلى بداية تاريخ البشرية حسب التوراة، ففي سفر التكوين، في اليوم السادس للخلق خلق الله الإنسان على صورته وشبهه، مخاطرأ أن يسعى الرجل والمرأة إلى التماهي معه^(٨). والواقع أن الرجل والمرأة عندما استمعا إلى كلام الحية وأكلا من الثمرة التي حرمها الله عليهما فإنهما اختارا أن يصبحا "كآلهة". لقد ركبا المخاطر الكبيرة، التي كانا حينئذ عاجزين عن تقدير تبعاتها، وهي مخاطر مضاعفة: لزوم أن

(٧) حنة أرنت، أزمة الثقافة، تقديم، باريس، منشورات غاليمار، سلسلة "فوليو لمحاولات"، ١٩٧٢م،

ص ٢٥-٢٦.

(٨) Hannah Arendt, *La crise de la culture, préface*, Paris, Ed. Gallimard, collection "Folio essais", 1962, p. 25-26.

(٨) الترجمة الجامعة للتوراة، منشورات سيرف، ١٩٨٠م.

يموت كما هدهما بذلك الخالق ، امتلاك معرفة الشعور بالسعادة والأسى كما أخبرتكما بذلك الحية. وإن هذا يعني بدقة كبيرة أنهما اختارا خطراً عظيماً تمثل في بداية التاريخ. لقد طردا من جنة تمثل السكينة والأمن. وبالتالي كان لفعليهما نتائج تتجاوز بمسافة كبيرة غايتكما ، وكان من هذه النتائج حسب الثوراة امتلاككما المسؤولية. إن ما سيوصف بأنه "السقوط" الكارثي هو أصل التاريخ البشري ، ذلك التاريخ الذي هو ، حسب الثوراة على الدوام ، منسوج من المخاوف والمواجهات ، ذو إيقاع يتناسب مع التدخلات وأشكال الوعي السماوي ، ومع النكبات طبيعية كانت أم بشرية. لقد أصبح المستقبل مجهولاً. وهذا ما يعبر عنه في عصرنا الفيلسوف التشيكي جان باتوكا^(٩) Jan Patočka بقوله : "الصبيرة مشكلة وستكون كذلك على الدوام".

٣- المخاطر ، "حاجة جوهرية للروح"

3. Le risque, un "besoin essentiel de l'âme"

إن الفيلسوفة سيمون في في كتابها الذي يحمل عنواناً دالاً كل الدلالة : التأصل^(١٠) فصلت القول فيه بما يمكن أن نعده فلسفة للمخاطر. عاجلت في الباب الأول من الكتاب "حاجات النفس" ، وهو بحث صغير مخصص ليث الطمأنينة في نفس الفرد الذي يستطيع التنفس والعيش والتصرف في خضم المخاطر ، عندما يتخلى عن الواقية التي تحظر عليه الوصول إلى الواقع ، إلى الحقيقة. هناك إلى جانب القوة أمر آخر غيرها ، واقع ينصب الروح ويث فيها زخماً لم يكن لديها شك أنه موجود فيها. إن للكائن البشري حاجات ، حاجات النفس لا تبتدع لها حقوقاً ، ولكن تفرض عليها التزامات ، لأن تلك الحاجات الكامنة فيها هي صوت حقيقتها. إن المظهر الأبدي والمطلق لالتزامات كل فرد ليس مهماً

(٩) (١٩٠٧ - ١٩٧٧م) ، واحد من أهم الفلاسفة التشيكيين في القرن العشرين ، تأثر بهوسرل وهايدغر ،

ويهتم بالفلسفة الظهورانية ، وله أبحاث في أثر أفلاطون في الحضارة الأوروبية. (للمترجم)

له في رأي سيمون فيّ إلا في ظروف استثنائية ؛ لا تكتشف الروح نفسها ولا تكتسب وجودها إلا إذا اكثرت بنار الحدث وبدا لها عارياً. ولهذا :

تكون المخاطر حاجة أساسية للنفس. وغيابها يثير نوعاً من الملل الذي يصيب بالشلل بطريقة تختلف عن طريقة الخوف، ولكنها تكاد تكون هي هي.

وتضيف سيمون فيّ :

وربما يكون التأصل هو الحاجة الأكثر أهمية والأكثر إعمالاً للنفس البشرية... يصبح للكائن البشري جذر عندما يشارك مشاركة واقعية وفاعلة وطبيعية في إيجاد جماعة تحافظ على بعض كتوز الماضي وبعض توجهات المستقبل حية.

[١١٩] يتضح أن هذا التأصل عبر المشاركة في وجود الجماعة مرتبط بالمخاطر التي ليس لها أي صفة من صفات المبدأ الأخلاقي، ولا سمة من سمات المورد الاقتصادي ؛ إنها تمرين فلسفي حقيقي، يتمثل في اكتشاف أن الكائنات والأشياء موجودة، وجوداً حراً ومستقلاً، بعيداً عن الوهم والكذب، بعيداً عن الزيف الأخلاقي. كلما ازدادت الحرية في الكون ازداد فيه النظام عبر التعرف والتمييز. إن الحرمان من الحرية هو الذي يدفع البشر إلى الانحراف عن الطريق القويم وإلى القتل. يقول سقراط Socrate :

إنه لمن المستحيل أن يخنفي الشر، لأن هناك على الدوام عكساً للخير. كما أنه من المستحيل بالقدر السابق نفسه أن يكون له مقعده بين الآلهة ؛ وبالتالي إنه يتجول عبر الطبيعة الفانية وعبر هذا العالم هنا على الأرض.

والحال أن الأخلاق والاقتصاد والسياسة لا تهتم إلا بهذا العالم هنا على الأرض ؛ العالم الذي يتحدد فيه مصير الأفراد والمجتمعات. وترى سيمون فيّ أن السياسة هي الفن الرئيس، في حين أن الأخلاق، مجردة كانت أو مكتشفة، تعالج على وجه الخصوص الضرورات. وإن ما يعتد به من أجل حدوث تشابهك مؤثر بين المخاطر

والتأصل، هو اتخاذ الخيال سنداً. إن أعمالاً رئيسة مثل التوراة أو أنتيغون Antigone أو الإلياذة أو الأوديسة تهب معرفة لا زمنية، جديدة وحية على الدوام، إنها تدعو القارئ إلى المخاطرة بترميم الذاكرة. ربما يكون ذلك هو فن التحرك في تلك الفرجة بين الماضي والمستقبل، الفرجة التي تتحدث عنها حنة أرنت. وبذلك يتعرض الأفراد لمخاطر أقل في مواجهة التزامات لا يمكن التوفيق بينها، ولكنهم يستطيعون المخاطرة بالتعرف على الآخر، وبالتمتع بالاحترام الذي يربط بين المجتمعات، الذي هو شرط العيش المشترك. وتذكرنا حنة أرنت بأن كل جيل جديد، وكل إنسان جديد ينبغي أن يعيد، وإن بصعوبة، اكتشاف منشط التبصر، التبصر في قرنتنا هذا:

إن للسمي المبرأ من المصلحة إلى الحقيقة تاريخاً طويلاً... وأظن أنه بإمكاننا أن نرفعه إلى اللحظة التي اختار فيها هوميروس أن يتغنى بمآثر الطرواديين غناء لا يقل في شيء عن تغنيته بمآثر الإغريق^(١١).

يتجذر تاريخ البشرية في القتل والعنف. ففي التوراة يعد حدث مقتل هايبيل، الراعي الذي قتل أخاه قابيل المزارع، أول حدث في تاريخ البشرية. أما قابيل الذي طرده الله من وجهه، ولعنته الأرض نفسها التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيه من يده، فإنه أصبح بعد جريمته هو وذريته مؤسس المدن ومعمرها. لقد أسهم، بعد أن منعت جرمته من زراعة الأرض، في توطين البشر في مساكن. إن صورة هايبيل العنيف والمتوحش، معمر المدن، لتذكر بصورة الإله أبوللون Apollon. وآية ذلك أن إله الشمس أبوللون هو أيضاً في بلاد الإغريق القديمة الإله الذي يخفي سكيناً خلف قيثارته^(١٢). إنه بوصفه إله المدنية مسؤول عن بداية البشرية. إنه بذلك، وهو يشق

(١١) حنة أرنت، أزمة الثقافة، م. من، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(١٢) قارن مازميل ديتين، أبوللون، شاهراً سكينه، باريس، منشورات غاليمار، ١٩٩٨م.

Cf. Marcel Detienne, Apollon le couteau à la main, Paris, Éd. Gallimard, 1998.

الطريق بسكينه عبر الطبيعة المتوحشة، بيت الرعب في نفوس الآلهة أنفسهم، ويؤسس معبد دلفي Delphes ومدينة طروادة. إنه يرسم فضاء القانون، دون أن يفرض ألته إرادته على البشر. كان أبوللون، وهو يؤسس طروادة، يعلم أنها لن تبقى إلا زمناً قليلاً، ولكن المهم هو أن التأسيس قد حصل، وإن كان هناك خطر الحرب والخراب. إن أبوللون، المستبد، هو أيضاً إله القربان؛ إن له علاقة مستمرة مع العنف، ومع جرائم القتل؛ وقد يصل به الأمر في بعض الأحيان إلى يغري بارتكاب بعض الجرائم. وإن كل تأسيس لدى الإغريق القدماء معرض للتعرض لخطر العنف والجريمة^(١٣).

٤ - عوليس المبادر والمقياس الصحيح للمخطر

4. L'entrepreneant Ulysse et la bonne mesure du risque

إن عوليس Ulysse، البطل، والجريء والمكار، الذي يحميه الإله أبوللون، يبدو أنه واحد من أقدم خبراء الإنسانية في مجال المخاطر. لقد استحق، بهذه الميزة نفسها أن يصبح خالداً في أوديسة الشاعر المشهور هوميروس. إن الأوديسة التي ترسم الرحلة البحرية التي قام بها عوليس ومرافقوه عبر العالم الفسيح للعودة إلى وطنهم بعد الاستيلاء على طروادة، توضح أيضاً كيف أن الحياة البشرية حبيسة عاصفة أبدية من مظاهر التجديد والمخاطر. لقد كان عوليس بسبب كونه عرضة لخطأ بعض القوى الإلهية، ولمساعدة بعضها الآخر معرضاً للحرمان من العودة إلى وطنه ألبته؛ إنه من جانب آخر الوحيد من كل فريقه الذي عاد إلى وطنه. إن الاعتدال في ركوب المخاطر، والوقوف بعيداً عن أي طوباوية واثقة بالمستقبل، ولا تستسلم ألبته للخوف - وبالتالي لا يسهم في صناعته - هو الشرط المناسب لتصرفات البطل.

(١٣) ويصح هنا لدى الشعوب اللاتينية أيضاً فأسطورة تأسيس مدينة روما قامت على العنف والقتل، في

أسطورة روموس ورومولوس. (للتفجيم)

ففي الشيد الثاني عشر من الأوديسة يجد هوليس نفسه مع مراقبيه معرضين لوضعين ، من يتعرض لهما فمصيره الهلاك المحتم ، وهما وضعان مشهوران ، كان ينبغي عليه بالضرورة مواجهتهما. يتمثل الأول في أنه كان ينبغي عليه أن يسير بمحاذاة جزيرة حوريات البحر اللواتي يجتذبن البشر بقنائن الراتع الذي لا يقاوم ليثلغتهم. أما هوليس ، الحذر والفضولي في آن معاً ، فإنه أمر بحارته جميعهم بأن يسدوا آذانهم بالشمع. وطلب منهم أن يقيدوه إلى صارية السفينة ومنعهم من أن يفكوا وثاقه مهما توسل إليهم ليفعلوا ذلك. ذلك هو إجراء الحماية والمقاومة ضد المخاطر القاتلة التي تخيلها. وهو إجراء قائم على السلطة والثقة ، لأنه رفض أن يستخدم بحارته حريتهم الفردية في الاستماع ، لقد استبعد أيضاً إمكانية أن يعصوا أمره ولا يسدوا آذانهم. وما إن بدأ هوليس يسمع غناء الحوريات الجليل حتى شعر برغبة لا تقاوم في الذهاب نحوهن ، ولكن رفاقه منعوه. أما الحوريات اللواتي أثار غضبهن أن يستمع إليهن أحد دون أن ينجحن في إغرائه فيأنهن رمين أنفسهن على الأمواج وهلكن. إن ركوب المخاطر يتمثل في التعرض لها بطريقة مبدعة ، مع وعي بطبيعة المخاطر التي تتعرض لها ؛ إن مبدأ الاحتراس يسمح هنا بالمخاطرة وبملاسة الشر عن قرب. إن هوليس ، وهو يرضى بحزم مواجهة الشر ، وتعني هنا الاستماع إليه ، محيطاً نفسه بكل وسائل الأمان ومقيداً لها ، يجرده من سلاحه الفتاك ويحجوه. إن الحدث الذي يحول المخاطر إلى نجاة قد تحقق في الكلام. ولكنه كان الوحيد الذي استمع إلى الحوريات ، ولم يعرض رجاله لخطر الاستماع إلى غنائهن.

كان ينبغي على هوليس مباشرة بعد هذه المغامرة أن يواجه مخاطر مرعبة أخرى ، كان عليه أن يواجه في مضيق ميسين Messin واحدة أو أخرى من صخرتين بحريتين ، عليهما امرأتان مرعبتان. الأولى ، خاربيد Charybde ، تبتلع بعنف لا يمكن التغلب عليه ماء البحر والسفن التي تجري فيه ؛ والثانية سكيللا Scylla تمسك بكلاهما

المتوحشة الستة التي تشكل القسم الأسفل من جسدها بحارة السفن التي تمر أمامها. إن عوليس، وهو يقرر اجتياز هذا الممر الخطير - ولكن هل كان له الخيار حقاً في اجتيازه أم عدم اجتيازه؟ ألم يكن ينبغي عليه على أي حال أن يتابع طريقه بأقصى ما يمكن من سرعة وفاعلية؟ - مدفوعاً للتضحية بأفراد، وإذن بحريات فردية. لقد زرع مشهد موتهم الرعب في نفسه، ولكنه أنقذ سفينته والقسم الأكبر من طاقمه:

جذبت سكيللا اللعينة رفاقي الذين كانوا يرتعشون، وراحت تبتلعهم على باب كهفها، في حين أنهم كانوا يصرخون، وكلهم يمد ذراعيه لمحوي مستنجداً مستغيثاً في قنوط ويأس أبداً ما وقعت عيناي في جميع رحلاتي البحرية على منظر أبعث للأسى، وأمض للنفس وأجرح للفواد من ذلك المنظر الرهيب^(١٤).

لا يقاس الشر بالمقياس البشري، ولكن الإنسان يجد نفسه بطريقة مبهمة متورط بانتشاره، كما هو الحال في كل حدث. لم يكن عوليس قبطان السفينة، المتورط ورطة عجيبة لينكر مسؤوليته، ففي إقامته في العالم الآخر انتقده بحارته انتقاداً مرأً، وأخذوا عليه بحرقه أنه ضحى بهم، ولكنهم لم يأخذوا عليه في حال من الأحوال التهور، ولا انعدام الكفاءة. لم يكن عوليس ليعرض ألبته لرفاقه للمخطر من أجل أن يحمي نفسه فقط. إن عوليس، الذي عانى من الشر، الذي هو ذهول وحنف في آن معاً، يستطيع في معاناته أن يتخلى عن بحارته ويتخلى عنه بحارته. إنه لم يكف ألبته عن تحليل الوضع، وتحديد اختيارات أخذاً في الحسبان ما فيها من أرباح وخسائر. إنه لم ينصرف ألبته عن تبصر المخاطر؛ لذلك لم يهلك، واستطاع في نهاية قصته العودة إلى مسقط رأسه، مدينة إيثاكا Ithaque. ولم تكن القضية لديه أن يحب أو لا يحب المخاطر، إن ما يريد هو العيش/النجاة والتقدم. كان يتابع على الدوام طريقه متخذاً من الإخفاق رأس ماله؛

(١٤) الأوديسة، النشيد ١٢، ٢٥٠ - ٢٥٩: ترجمة لوكتت دوليول-لوفاران بالترجمة العربية، دريني خشبة،

الأوديسة، دار الكتب الأهلية، ميدان الأوبرا، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٤٥ م، ص ١٧٨ - ١٧٩. المترجم.

Odyssee, XII, 250 - 259: traduction de Leconte de Lisle.

كان يعلم أن ما يحدث له هو جانب من حياة الجماعة، جماعلاً منها أكثر أماناً وأكثر حيوية. ولكن رفاق عوليس لم يكونوا مثله يمتلكون القدرة نفسها على تبصر المخاطر. لذلك لما وصلوا جاععين إلى جزيرة ترعى فيها قطعان من العجول البيضاء، تملكها ربة الشمس رفضوا الاستماع إلى رأي عوليس الذي كان يحضهم على عدم المساس بالعجول، واتهموه بأنه يناور بالخوف. إنهم لم يميزوا بين المخاطر الداهمة والمخاطر المتبدلة. واتهموا عوليس بأنه يخادعهم ويستعبدهم. وحقيقة الأمر أنهم هم الذين استبد بهم الخوف من الموت جوعاً، وبدوا أن تلك الشهوة هي التي تستعبدهم. حينئذ قتلوا بعض تلك العجول وأكلوها، معتقدين أنهم بذلك يحفظون أنفسهم، مما أثار غضب ربة الشمس، وعرضهم للانتقام كبير الآلهة زيوس. وعندما استأنفت السفينة مسيرتها أرسل على البحارة الصواعق فصعقتهم فهلكوا جميعاً إلا عوليس الذي لم يشارك في تلك المأذبة التي انتهكت المحرمات. لم يفهم البحارة أن شدة عوليس كانت مرتبطة بجودة أدائه. ولأنهم لم يستطيعوا التبصر في المخاطر فإن المخاطر أهلكتهم. لقد أخفق البطل بلا شك في خلق ظروف مسؤولية جماعية، وشرعة أخلاقية عالية، ولكنه أيضاً احترام حرية رفاقه، ولم يتخيل أي شيء يمكن أن يحول بينهم وبين ممارسة حريتهم.

٥- شأن عوليس: المصادفات والمخاطر لصاحب المبادرات المعاصر

5. Comme Ulysse: les hazards et les risques de l'entrepreneur modern

إن للمخاطر التي تأخذ في الحسبان الخوف، والأوضاع العارضة، التي هي كما رأينا للتو، موضوع لاستعراض فردي أو جماعي، لرضا فردي أو جماعي، هدفاً إيجابياً. ونحن في قولنا هذا قريبون كل القرب من التعريف الذي ابتدعه كونديلاك^(١٥) Condillac وورد في معجم اللغة الفلسفية لبول فولكيني Paul Foulquié :

(١٥) إيتين بونوت دي كونديلاك Étienne Bonnot de Condillac: فيلسوف فرنسي مشهور من فلاسفة عصر التنوير. ولد في عام ١٧١٥م في غرونوبل، وتوفي عام ١٧٨٠م. المترجم.

المخاطر هي مواجهة التعرض للمشر، على أمل أن نحصل على الخير إذا استطعنا الإفلات منه^(١٦).

هل أسهم المقدم هوليس عبر مغامرته في وضع تعريف "للمقاول"؟ وقد نشأ في القرن الثامن عشر الميلادي، في فرنسا وإنجلترا، في أوساط المديرين والمهندسين نقاش حاد حول المصادفات والمخاطر المرتبطة بالشركة^(١٧) و"المقاول"، الذي يسمى أيضاً "رجل المشروع". لتذكّر هنا ببعض مظاهر ذلك النقاش النظري الذي يمكن للتحليل الذي فرغنا عنه للتو بخصوص بطلنا الإغريقي أن يلقي الضوء عليه.

تستمد كلمة "شركة" *entreprise* أصلها من كلمة *emprise* في الفرنسية القديمة، ثم من كلمة *enterprise* التي تشير إلى الفعل بوصفه التزاماً بمشروع يفترض ركوب المخاطر. وتنطبق الكلمة في المقام الأول على مجالات مختلفة. فالمقاول هو الذي يتقود مشروعاً عسكرياً، وتنطبق على من يستطيع عبر مشاريعه تفكيك الروابط التي تؤسس مملكة، وتنطبق على من يخالف النظام التسلسلي لهيئات الدولة ١٢٢١ ويخرب قواعدها، وعلى من يلتزم وفقاً لعقود مسبقة بإنجاز مشروع اقتصادي متحملاً تبعات المضاربة والزمن. ويلتقي هذا الاستخدام الأخير للكلمة مع ممارسات تطورت في القرن السادس عشر. ولكن المتصور الاقتصادي لمصطلح "المقاول" كان وليد القرن الثامن عشر الميلادي، عندما ارتبط بالتفكير في طبيعة المخاطر. وقد حرص مصرفي بارع من ذلك العصر هو ريشار كانتيون *Richard Cantillon* على تعريف المقاول في كتابه محاولة في طبيعة التجارة على وجه العموم^(١٧)، نشر كتابه في لندن عام ١٧٥٥م، وجاء فيه:

إن انتقال الأغذية والبضائع ومقايضتها يتم في أوروبا، شأنه شأن إنتاجها، عبر مقاولين وبالمصادفة.

(١٦) بول فولكي وريجون سان - جان، معجم اللغة الفلسفية، باريس، الطبوعات الجامعية الفرنسية، ١٩٩٢م.
Paul Foulquié et Raymond Sabat - Jean, Dictionnaire de la langue philosophique, Paris, PUF, 1992.

Essais sur la nature du commerce en générale, Londres, 1755. (١٧)

ثم يصف في كتابه ما يسهم في جعل فعل كل مقاول سلوكاً "غير مضمون"، يتصرف فيه المقاول "حسب أفكاره"، و"دون أن يستطيع التنبؤ"، ويتصور وينفذ فيه مشروعات يتفدعا وسط تقلبات الأحداث. إن عدم اليقين - الذي يعني المخاطر أيضاً - في مردود الشركة يعود إلى حقيقة أن ذلك المردود يرتبط بأشكال استهلاك "ملاك الأراضي" الذين يعدون الأعضاء الوحيديين في المجتمع، الذين هم "بطبيعتهم مستقلون". أما المقاول فإنه من جانبه قادر على السيطرة على تبعيته الطبيعية عبر قناعته لأنه حيثئذ يتخلى عن وسائل العيش التي توفرها له الرهونات، وعبر صناعته التي تسمح له بتحمل مخاطر عدم اليقين. حيثئذ يحصل على استقلال نسبي، مرتبط بقدرته على التقويم والمبادرة.

وفي عام ١٧٨٧م نشر جيريمي بنتهام Jeremy Bentham في لندن كتابه الدفاع عن الربا^(١٨) الذي دافع فيه معارضاً رأي آدم سميث Adam Smith عن الأهمية الاقتصادية للمقاول الذي يركب المخاطر المرتبطة بالابتكار والتجديد، وتسهم بذلك في شق مسالك جديدة للتقدم التقني، ساعياً عبر إخفاقاته وأولئك الذين يأتون بعده بتجنب أخطائه. إنه يقابل بين الشركة التي يكون فيها الالتزام محفزاً بمدى التعلق بالأمير وبالإخلاص له. إن في هذا صيغتين مختلفتين لتحقيق المصلحة العامة.

وبعد حين، جاء دور الأمريكي فرانك هـ. نايت Frank H. Knight لإيجاد نظرية لرجل المقاولات والمردود الشركة، وهي نظرية كان فيها مفهومها الاحتمالية وعدم اليقين مفهومين مركزيين، وذلك في كتابه المخاطر وعدم اليقين والربح^(١٩) الذي نشر في بوسطن عام ١٩٢١م. ويميز فيه بين التأمين على المخاطر وبين التأمين على عدم اليقين. إن عدم اليقين الذي يتدخل فيه الحكم الحر - الشركة الحرة - لرجل المقاوله يخلق

Defence of Usury, London, 1787 (١٨)

Risk, Uncertainty and Profit, Boston, 1921 (١٩)

أوضاعاً، مثل تلك التي عاشها عيشة مثالية البطل الإغريقي هوليس، وهي أوضاع تستعصي على العلم وعلى الحساب لأنها أوضاع غير قابلة للتكرار. ثم إن شومبتر Schumpeter سيتحدث عن إرادة التجديد عند رجل المقاولات المتعدد، أما كينيس Keynes فسيعرض للفرائز الحيوانية التي تحفز الدافع لدى رجل المقاولات.

وفي عهد قريب، عام ١٩٨٢م قارن جورج شاكل George Shackle، مقارنة مقنعة كل الإقناع، بين رجل المقاولات المنشئ، "رجل المشروع"، رجل المخاطر المبدع، وبين فنان عبقري أو عالم رياضيات عظيم^(٢٠). لأن اختيار الفعل الخطر يصمد في وجه عقلانية الخطاب الاقتصادي أو يزيد منها.

٦- البصر في المخاطر: "كينوني تكسب قيمة أكثر"،

ضد الموت أو التهيؤ لما سيأتي؟

6. Penser le risque: "mon être acquiert plus de valeur", contre la mort ou en disponibilité à ce qui vient?

إنه لمن المهم التسجيل أن المصطلح اللاتيني angor يدل في آن واحد على "الخوف" و"الإحساس بالجور"، أي "القلق" و"الشعور باختناق"، و"المروء الضيق"، بمعنى الوضع الخرج"، "الخطر". ويعلمنا فرويد Freud أن الموت ليس مجرد غياب؛ يمكنه أن يحاصر أقوالنا و[١٢٣] أفعالنا، إنه يصبح عندما يحمل الاسم اليوناني ثاناتوس thanatos مبدأ فاعلاً حقيقياً تغري شهوانيته المضادة للإنسان دون أن يعي ذلك. يمكن أن نترك العنان لأنفسنا ليعترنا الذهول لهذا المبدأ، ونسلم أنفسنا لدوار السلبية هذا، لكوارثية سلبية تعبر عصرنا. هنا أيضاً، تساعدنا الأسطورة الإغريقية على التفكير. تتمثل قصة بيرسيوس Persée وميدوسا Méduse في أن يذهب البطل إلى آخر العالم المعروف حيثنلج لتخليص البشرية من أحد الوحوش. كان مكان الوحش بعيداً، ولكن

(٢٠) جورج لينوكس شارمان شاكل، رجل المبادرات، نيويورك، برينر، ١٩٨٢م.

George Lennox Shorman Shackle, *The Entrepreneur*, New York, Praeger, 1982.

وجوده محققاً، وكان يُحوّل من ينظر إليه إلى حجر. ولكن بيرسيوس لم يستسلم لإغراء مبدأ اتخاذ الاحتياطات التي تقضي على إمكانية ركوب المخاطر. فلكني يتجنب النظر المرعب والميت لميدوسا استخدم درعه المصقول كالمرآة فلم يعد بذلك يخشى نظر الوحش؛ وقد قتله في أثناء نومه. وبذلك نجد بيرسيوس يرفض الموت والكارثة، ويرفض الاستسلام للعرض وللرعب الذي افترض وجوده ضمناً؛ إنه يسترد كل شيء عبر جهد تفكيره؛ ويكمن الخلاص في ذلك النشاط التفكيرى. إن القبول بالكارثة يخفي في طياته خياراً لصالح الموت؛ نترك أنفسنا تسيطر علينا نظرية التراجع المحتوم، نوحّد العالم عبر المسار الكارثي وفيه؛ نظهار بالاختفاء أمام ما ينبثق عن الذات، الموت^(٢١). لم يستسلم بيرسيوس ولا عوليس إلى دوار الموت، ولا لإرهاب الوحوش. وإن أنتيغون Antigone التي اختارت أن تدفن أخيها معارضة القانون الذي سنه ملك طيبة Thèbes لكي تحمر جسده من الموت كانت تبصر في اتهامها الخاص، وبموتها الخاص. وليس المقصود بالطبع في حالتها السلبية؛ إنها رفضت أن تصبح مادة لإجراء يزيل عنها السمة الإنسانية ويؤسس لبداية أخرى.

وبعد عدة قرون أورد أحد فرسان القرون الوسطى التسوية التالي ليضفي صفة شرعية على مغامرته أو سلطته (التي أصبحت في وقت لاحق شركة)^(٢٢)؛ كينوثي ستكتسب قيمة أفضل.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الموت في الغرب، وفي الحضارات المرتبطة بالأديان التوحيدية الثلاثة على وجه العموم وفي الفكر الإغريقي هو الخطر بامتياز، هو الكارثة؛ فالمخاطر بالنسبة إلى الإنسان مرتبطة بحقيقة أن يكون للمرء جسد رقيق،

(٢١) في هذا السياق، إن موقف الفيلسوف جان بيير دوبوي Jean-Pierre Dupuy في مقاله "الفجوات في فلسفة العقول"، مجلة الفلسفة الاقتصادية، رقم ٧، ٢٠٠٣م / ١ تم تأويله بوصفه تعبيراً عن نبوءة سلبية، تستلم للكارثة.

(٢٢) Emprise التي تعني: سلطة، تأثير، نفوذ، تحولت حسب المولقة إلى entreprise التي تعني شركة. المترجم

والأنا محددة عبر حتمية المحافظة عليها. في حين أن الموت لا يشكل في حضارات أخرى كالحضارة الصينية على سبيل المثال النهاية المأساوية للحياة، إنه ليس الحد الذي يكون رمي المرء فيما وراءه أمراً مرعباً، إنه الأمر الذي يصبح موازياً للحياة. يندرج الموت في الحركة التي لا نهاية لها للتحول، وللتنفس، الحركة التي هي حركة العالم؛ والجسد هو نفس مكثف. وقد كانت القضية بالنسبة إلى الرجل الذي ألقى بنفسه في تيار الماء الجارف في القصة التي سبق الحديث عنها للحكيم زهوانغزي تعني الامتثال لطاو (منطق) الماء، وأن يترك التيار يستشقه ثم يفره دون أن يستفد طاقته الخاصة في مواجهة طاقة العالم. وقد تحدث الفيلسوف هيدغر Heidegger عن "بنية القلق"، التي تجعلنا في الغرب على الدوام موسومين بتقديم الذات إلى الأمام، عبر الاستباق؛ فالإبلاغ عن المخالفات على سبيل المثال يسهم في ضبط الإجراء الاستباقي لهذا "القلق"؛ لن نرضى بأن لا يعاقب القانون الصمت الذي يقال إنه أحد الأسباب، إن لم يكن السبب الرئيس، لخراب قادم. في حين أن هناك في الصين استعداداً جوهرياً لما سيأتي، للتعاقب، وهو استعداد لا ينبغي أن نخلط بينه وبين الإحساس الغربي بالعجز. إذن، لا يمكن أن يكون للخطر المعنى نفسه، ولا يمكن أن يكون مخوفاً منه بالطريقة نفسها في الغرب وفي الشرق، لأن الأجساد تتحدث حديثاً مختلفاً عندما تكون الأقوال غير متشابهة، وطريقتها في سكنى العالم تختلف أيضاً. وفي مقياس أن الكوكب يتعولم فإننا بالتأكيد ننتمي إلى الأرض من أقصى الغرب إلى أذننا، ولكن ذلك يعني أنه ينبغي أن نكون متبهمين إلى حقيقة أن أي كونية تتعثر بالغيرة الحيوية. (١٢٤)

٧- الفضولية الضرورية، مبدأ الفضولية

7. La nécessaire curiosité, le principe de curiosité

الآ يمكن تحويل مبدأ الاحتياط، الذي بات متضمناً في دستور الدولة الفرنسي، شأنه شأن إعلان حقوق الإنسان والمواطنة، إلى آلة لقتل التجديد؟ وهو مبدأ وضع بادئ ذي بدء للاحتراس من التغييرات المناخية الناجمة عن تعديبات الإنسان. وإن أكثرية

البشر اليوم ترفض الأجسام المعدلة وراثياً، وترفض الاستنساخ، والتجديد، وربما التقدم. لذلك شهد مشروع القانون حول الأجسام المعدلة وراثياً OMG نقاشاً صاحباً خلال الستة الأشهر الأولى من عام ٢٠٠٨م قبل أن يفضي ذلك النقاش إلى إقرار القانون، في الخامس والعشرين من يونيو "حزيران" ٢٠٠٨م، القانون الذي أقر ترتيباً يحدد المسؤوليات وواجبات الإعلام. إن وكالات التسجيل التي تؤدي منذ بعض السنوات دوراً في تقديم تقييم للخطر يتجسد عبر قيمة، وغير موثاق مالي في سياق اقتصادي ونظامي محدد لا تطمح إلى استباق الظواهر الاقتصادية. بل إن الاستباق الاقتصادي يبقى مجال مسؤولية المبادر الذي يساعده في اتخاذ قراراته عدد من أصحاب المهن المختلفة؛ والحال أن عنف العاصفة التي ضربت في هذه السنة نفسها، ٢٠٠٨م الائتمان، الأزمة التي تسمى أزمة الرهن العقاري الأمريكي حرض بعض المستثمرين لفضح ذنب تلك الوكالات.

يعلم الاقتصاديون أن تكييف المخاطر كما قاربه المناهج الإحصائية التقليدية لا يمكن له أن يأخذ في الحسبان خطراً مستمراً، وغير مؤمن بسببه تطور غير مناسب للمنتظر الاقتصادي. هل يمكننا تخيل أن فلاسفة عصر الأضواء، ديدرو Diderot والعلماء الموسوعيين الآخرين يعزفون عن المعرفة و"المشروع" بسبب مبدأ "الاحتياط"، فباستور Pasteur وماري كوري Marie Curie يخفيان اكتشافاتهما خوفاً من الآثار الجانية أو من المنتظر غير المتوقع وغير المناسب؟

ينبغي بالبداهة أن تتساءل عن أسباب هذا الخدر وهذا الخوف من المعرفة، ومن المستقبل على وجه العموم، وذلك واضح كل الوضوح في أوروبا القارية. يبدو الفرد في ديمقراطياتنا متمصباً، عاجزاً عن ركوب المخاطر، أو القبول بإصلاح لمصلحة الجماعة. ليس هناك حرية للمبادرة بموارده الربحية دون تحمل مخاطرها؛ وليس هناك ألبته إخفاق نهائي. لهذا يبدو أنه من المفيد كل الفائدة أن نرد الاعتبار للفضول الذي تصفه حكمة شعبية مزعومة بأنه "عيب شنيع"، وهو في واقع الأمر فضيلة أساسية

للتطور وللتواصل بين المجتمعات. أليس الفضول لمعرفة العالم لمعرفة الآخر، بوصفه جهداً لتجاوز الفردية، أسُّ التجديد، والنمو الشخصي والمجتمعي، وبناء المستقبل؟ لهذا تبدو مراكز التحليل التنبؤية المرتبطة بإدارة الـ "صناديق التحوط"^(٢٣) التي هي قيد التطور في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي اليابان وفي فرنسا عام ٢٠٠٨م، مهمة من وجهة النظر هذه.

إن الفائدة الأساسية للأساطير المذكورة سابقاً في هذا السياق هي التذكير بأن الكائن الناطق، وهو يتساءل ويجيب، الكائن الفضولي مثل عموليس، النموذج المثالي، سيد الفضول والمخاطر، لا يعدم البتة أن تكون في جعبته مبادرة ممكنة. إنه لمن المناسب إيجاد التوازن بين التحوط والابتكار. حتى لو كانت المخاطر هي العنصر الذي لا نني نتحرك ونتصرف في نطاقه منذ "السقوط" الأول، وحتى لو كانت الحرب، شأنها شأن السوق، وشأن الأعمال الفكرية العظيمة قد ارتقت إلى سجل الأحداث العالمية، وحتى لو أن حدود المخاطر لا تني تنتقل، فإن عدداً من من النقاط البارزة تستحق أن نقف عندها: إن الخطر الداهم، الوجودي للموت لا يمكن أن يوضع في المستوى نفسه مع هذه المخاطر أو تلك التي هي أكثر تحديداً وأكثر راهنية؛ إن تعريض بعض البشر للمخاطر لا يصح أن يصبح مورداً للآخرين؛ إن ثروة العلاقات بين البشر تترافق مع استقلال البشر الحقيقي. يقول الشاعر هولدرلين Hölderlin: "هناك حيث يكون الهلاك

(٢٣) Hedge fund = صناديق التحوط: هو وعاء استثماري يضم عدداً من المستثمرين لا يزيد غالباً عن نحو خمسمائة مستثمر قيمة الاشتراك في الصندوق ضخمة إذ تتراوح عادة ما بين نصف مليون ومليون دولار كحد أدنى. فلسفة الصندوق تقوم على ضمان تحقيق ربح للمستثمر فيه بصرف النظر عما قد يحدث في أسواق العالم من تقلبات. وليس هناك أي قيود على مدير الصندوق من الجهات المنظمة وهذه من النقاط القوية التي تؤخذ عليها. ويبلغ عدد هذه الصناديق التي ظهرت فكرتها في وول ستريت في أربعينيات القرن الماضي ثمانية آلاف صندوق تجوب شتى أسواق العالم. ولكن لماذا تحمل هذه الصناديق هذا الاسم؟ السبب الرئيسي لهذا هو أنها تبني إستراتيجية استثمارية تهدف إلى التحوط أو الخيطة من مخاطر التعرض لأي خسائر. للترجم

ينمو أيضاً ما يتقدّم. هل ينبغي الخوف من التقدم؟ كيف تطوّر المستقبل؟ ولنستمع في الختام أيضاً إلى حنة أرنت: [١٢٥]

إنه لموقف واقعي أن يتنظر الإنسان ما قد لا يكون متوقّماً أو متنبأ به، وتوقع حدوث المعجزات... فضلاً عن أنه كلما مالت الكفة بشدة لصالح النكبات بدا الأمر الواقع إرادياً أكثر إعجازاً؛ إنها النكبة وليس الخلاص هو الذي ينبغي أن يبدو أمراً محتوماً... إن الآليات التاريخية تخلفها وتقطعها على الدوام المهادرة البشرية، وكما تقطعها أيضاً طبيعة الخلق التي اكتسبها الإنسان في إطار أنه مخلوق فاعل^(٢٤).

تلك هي واحدة من القضايا التي تطرحها علينا الأسطورة فيما وراء المكان والزمان. والإنسان هو فعلاً الصانع المسؤول عن تاريخه الخاص، إنه هو الفضولي والمسؤول، الذي يبقى "قيمة القيم". لا ينبغي الخوف من البدايات، وينبغي إعادة قراءة الأساطير بلا كلل ولا ملل. ألا تمثل غاية الفلسفة حسب سيمون في، وبالتالي غاية الأساطير، في قول أشياء أبدية لكي تكون وثيقة من أنها ستكون أشياء راهنة^(٢٥)؟

(٢٤) حنة أرنت، أزمة الثقافة، م. س.، "ما الحرية؟"، ص ٢٢١.

(٢٥) بيرتران سان سيرتان، الفعل السياسي حسب سيمون في، باريس، منشورات سيرف، ١٩٨٨ م.
CP. Bertrand Saint - Sernin, L'action politique selon Simone Weil, Paris, Ed. Du Cerf, 1988.